« شيللر »

للاستاذ خليل هنداوى

حتى فى ظلمات الشك التى رانت على قلبي ، وفى الغم الذي غشى نفسى ، علمت - يا الهى - بأنى قد تحريت النور . . .
اراني - دائما - أكثر هدوءا . . . !

« شيللر »

بين كل شعراء الادب الالمانى تجد « شيللر » هو الشقى من طغى عليهم الشك . وبرح بهم التشاؤم المعذب .

درج « شيللر » من مهده ، يغمره حنان أم هى رمز الثورى ومثال العطف . وأب دعاله حين احتضنه بذراعيه - وربى ! امنح طفلى هدى العقل ، واهده السبيل الذى أخطه له ، وهكذا كانت مظاهر طفولته محاطة بالايمان العميق . وقضى الشاعر نشأته الأولى مولعا بالكتب . وهائما فى الطبيعة يشبع ما يثور فى نفسه من الاهواء الشعرية .

دخل المدرسة وأخذ العلم يطغى على شاعريته وايمانه ، ولكن « شيللر » كره العلم والعلماء ، وكان يجد ألذ ساعاته ساعة ينفرد بنفسه ويتلو توراة (لوثر) او (المسباد) ولكن روح الشك كانت تتسلل الى نفسه من حيث لايشعر . وفجأة تيقظت هذه الروح فيه فغدا صاحب شك وقلق - وظل - فى دوره الاول - بين عاملين يتساجلان الغلبة عليه ، فطورا يقهر القلب المتردد روحه الصافية . وتارة تغلب روحه الصافية قلبه المتردد : فينشد متألما

(حتى فى ظلمات الشك التى رانت على قلبى ، وفى الغم الذى غشى نفسى : علمت - يا الهى - بأنى قد تحريت النور .

انت اردت لى هذه الأيام السوداء ، التى تبرز فيها الاوهام المغرية من ناحية ، ويبرز الانكار - من ناحية اخرى - ضاحكا ضحكة الساخر

هانذا - تجار فوق رأسى العاصفة ! والقصبة سترتجف اذا لم ترحمنى يا الهى !

احرس قلبى فى هذا الهدوء ، فى هذا الهدوء المقدس وأنا سائر الى الحقيقة . فالشمس لاتعكس اشعتها فى اللجة الثائرة ، ولاتبسط شعاعها الاهلى صفحة الماء الرقراق .

إنى اسمع صلصلة الناقوس الذى يهتف بى الى الهيكل : فأغدو اليه حاملا ايمانى . . . .

ألا افتح قلبى لادراك الحقيقة ، حتى أستطيع ان اعانقها ، فأغدو سعيدا .)

فى هذه المقطوعة الصغيرة يظهر لنا شك الشاعر ، ومرارة قلبه ، وتوقان روحه الى الحقيقة ، والطريق التى انتقاها ليستعيد الهدوء والايمان . ولكن الله لم يجاور قلب شيللر كثيراً . لأن الشك تسرب اليه ظافراً ، وملك عليه نفسه ولما يتجاوز الثمانية عشر ربيعاً ، فعاد شاعر هذه المقطوعة الطافحة بالايمان شاعراً شاكا ماعلمنا سر انقلابه ! ولكن هل كانت المذاهب الفلسفية الا تاريخ قلب الانسان ؟ وهل كان الشك والجمود والسلب الا ثورة من ثورات النفس المتعطشة الى معرفة المجهول . واذا بشيللر يقول - متحديا الدين بلهجة من يؤله الطبيعة « ان الاله الواحد انما هو كل الكائنات . الطبيعة والاله هما قوتان متساويتان . الطبيعة هى اله يتعدد ويتقسم الى مالانهاية » وفى الاجتماع ، يؤمن بمذهب (روسو) القائل : ان الانسان يولد صالحاً ولكن المجتمع هو الذى يفسده (١) .

— ٢ —

لندرس الشاعر ، نفسه وقلبه وعواطفه فى رسائله وفى قصائده ، لأنها هى صورة نفسه - اذا توخينا صورتها الصادقة .

ان شقاء شيللر لم يكن شقاء شعريا خياليا فحسب ، بل كان شقاء مصدره نفسه التى غشيها منه ماغشيها ! فهو فى بعض احيانه يتنازعه عاملان : ثورة حواسه ، وتعنيف ضميره له تعنيفاً أراد أن يحطمه الشاعر فعجز عن تحطيمه ، ويتمثل أنينه هذا فى مقطوعة (القتال)

« لا لا . . . سوف لا أتحمل طويلا هذا القتال . . القتال الطاحن الذى يقوم به الواجب ، فاذا لم تقدرى على كبح أهواء قلبى ايتها الفضيلة ، فلا تطلبى منى التضحية . . . هذا اكليلك ليظل - كل الايام بعيداً عنى . . .

خذيه . . . وذريني وحدى [illegible] »

وفى بعض أحيانه قد يجد الشاعر فى نفسه جرأة على الفرار ، الذى يتجلى فيه الانتصار . فيأوى الى ملجأ (مانهايم)

« فى حالة هم وغم ، اكتب لكم - يا أصدقائى - بانى لم أعد

(١) وهذا المذهب دفعه الى تأليف روايته (اللصان)

أيستطيع البقاء هنا - فانا خلال اثنى عشر يوما حبست مع نفسى كل مكان داخل نفسى وخارج نفسى ، طالباً الخروج من هذا العالم فالناس والسماء والارض كلها غدت عندى قبيحة . أنا هنا فاقد نفسى ....

وهناك لحظات نرى وطأة الحاضر والمستقبل والعالم والناس تثقل عليه حتى تحطم قلبه ، فيقول يائسا :

«إنى عانقت الانسانية بحرارة وشوق ملتهب ولكن — والأخلاء — لم أجد نفسى إلا بين ذراعى كتلة من جليد .»

ان النفوس التى نشأت فى كنف الله ، تجد — عند ما تنعتق منه — مالا يجده غيرها من أصناف الألم ، وضروب التوجع ، لأن هذا الفراغ الذى كان يملؤه الله ينقلب الى ظمأ شديد لا يرويه شىء ولا يملؤه شىء ....

هذه هى المرحلة الأولى التى قطعها شيللر ومن ورائها مراحل ، والآن أصبح يظهر تردده كمذهب فى كتابه « رسائل فلسفية من جول الى روفائيل » فما كان جول إلا الشاعر نفسه ، وما كان روفائيل إلا صديقه الشاعر « كرونر » . ففى « جول » تتجلى نفس فتية ينتابها الشك ، وهى لا تستطيع أن تفر من أسفها على إيمان فقدته !

قال : (يالها من أيام سعيدة ! تلك الأيام السماوية . حين كنت أتيح مورد الحياة بعينى مغمضتين ، كنت مستسلماً لعواطفى وكنت سعيداً . علمنى روفائيل أن أفكر . وهأنذا الآن أكاد أذرى دموع الندم على هذا الاستكشاف . أنت سلبتنى الايمان الذى كان يودع الراحة فى قرارة نفسى ، وأوحيت الى أن أزدرى كل ما كنت أحترمه . فكم من أفكار كانت عندى مقدسة . فنزعت حكمتك (الحزينة) عنها رواءها . وأذهبت بهاءها .

كلما رأيت الناس وهم يرددون صلاة واحدة بلحن واحد قلت : لله هذه الشريعة التى استمسك بها الناس ! فبعثت فى قلوبهم الراحة والسكون .

عقلك قد أطفأ هباء نفسى . أنت قلت لى : لا ترمن إلا بعقلك . ولا مقدس غير الحقيقة ، ولا حقيقة إلا ما يتقبله عقلك — وهكذا أطعتك وصرفت عنى أبهى افكارى .

والآن عقلى وحده ظل معى ليكون وحده دليلى يحملنى الى الله . الى الحقيقة والأبدية . فتعساً لى اذا وجدت ما يخالف تفكيره . أو عرانى شك فى معرفته ، أو غزاه داء تركه مشلولا .)

فروفائيل يمثل أصحاب المذهب العقلى القائلين بأن لا حكم إلا للعقل كما يذكر جول : « أنت قلت لى : لا تقبل شاهداً غير العقل ، إذ لا مقدس إلا الحقيقة . والحقيقى هو الشىء الذى تعرفه بعقلك ، قد أطعتك وضحيت بأيمانى وغدوت كالظافر اليائس الذى أحرق كل سفنه وقطن فى الجزيرة الجديدة قاتلا منه كل رجاء بالرجوع . فعقلى هو الآن كل شىء وهو وحده يحملنى الى الله ويفتح لى أبواب الحقيقة والأبدية ! ولكن تعساً لى إذا ضل دليلى الطريق فالعادة لابد أن تغادرنى . وويل لى إذا شاء القدر أن تنقطع أوتار هذه القيثارة ، فتضطرب ألحانها ، وتكثر أشجانى وأشجانها . »

وفى فترة ثانية يكتب جول هذه الرسالة لروفائيل :

(ان سذاجتك قد خدع كبريائى ، كنت سجينا وانت جذبتنى من عجلتى لتقودنى الى ضوء النهار . فالنور الذهبى والفضاء الفسيح قد لامساجفونى . بالامس كان يرضينى من المجد الوضيع ان أكون ابناً صالحاً وصديقاً فاضلا ورجلا نافعاً لبلده ، اما أنت فقد صيرتنى رجلا انسانياً .)

قال لى روفائيل : المملكة الوحيدة فى العالم الروحانى هى مملكة العقل

وفجأة ترى الشاعر يحس حقارة الانسان ازاء عظمة الوجود فيجعله احساسه هذا فى شك من نفسه فيقول .

فى أى مكان حيثما حولت انظارى ياروفائيل يبدو لى الانسان محدود العقل ، وان هوة عظيمة تفصل بين تأملاته وبين الحقيقة . لاتغبطه على النوم الذى يستريح فيه ولاتوقظه ! فالعقل هو مشعل فى عجلة يثير لحظة فوق رأس السجين ثم يتركه فى ليل اكثر حلوكة . ان فلسفتنا هى رغبة (اوديب) فى المعرفة رغبة يحوطها الالم . ولاتنتهى من الالحاح والسؤال حتى يجيبها مجيب . هل تستطيع ان تعلمنى من انت ؟) ولكن الشك اخذ يحز فى قلب جول وجول يصيح ويتألم فتخمد جذوته المشتعلة ، فيقول مؤنباً (روفائيل) بلهجة النادم

(هل تعيد الى حكمتك ماسلبته منى ؟ واذا لم يكن — لديك — مفتاح تفتح لى به السماء فلماذا طردتنى من الارض ؟ واذا كنت تعلم ان سبل الحقيقة وراء حفائر الشك المخيفة فلماذا القيت صاحبك فى هذه الشعب المتوية ؟

انت هدمت كوخاً حقيراً لتشيد على بقاياه قصراً منيعا ولكنه قصر فارغ ويالالأسف !

روفائيل !! أطلب منك نفسي ، فأنا لست بسعيد .

قد فقدت شجاعتي ، ويئست من قوتي . ويدك وحدها تستطيع ان تشفي جراحي .)

وروفائيل يجيبه :

(عزيزي جول :

أتريد أن تصب عليك السعادة من السماء بدون انقطاع ؟ هذا كثير على نصيب الانسان . داء الشك الذي وقعت فيه لن تشفى منه الا بنفسك ، وبرغم ان يقظتك تعسة فانني لاأملك علاجاً أنقذك به من خيالك وأحلامك ؛ انا لم اضع شيئا للنفوس التي هي أمثال نفسك الا انني لقحتها بالاضطراب الذي لامفر منه

ايها الجاحد ! قد لعنت العقل ونسيت النعم التي حباك بها .)

وهاهوذا روفائيل يحاول ان يقود صديقه الى الحقيقة فيكتب له:

(ماالشك - ياصديق - الا حدة العقل الانساني في ثورته . على ان الهزة الشاذة التي تصيب النفس الناضية يجب الا تؤول بها الى تاييد صحتها ، وتثبيت وجهتها ، وكلما كان الخطأ بعيداً كان الظفر بالحقيقة اكثر خطراً . وكلما كثرت عوامل الشك في الانسان كان اكثر لحاجة في تحري اليقين)

و كتاب روفائيل الاخير يقرب تأثير مدرسة (كانت) الفيلسوف. وفي تلك الاثناء كان شيللر يقف على أجدر ما كتبه (كونسبرغ) بالمطالعة من تصانيف فلسفية . فقرأ فيها بأن افكارنا و آراءنا التي نراها ، قد يمكن الايكون لها خارج عقلنا حقيقة مدركة . ومثل هذا المذهب يوافق كل الموافقة مذهب شكه ، بل يذهب شيللر الى أبعد من ذلك ، فبينما كان (كانت) يحرص على شيء من الحكمة في (العقل المكتسب) اذا بشيللر يسلخ عن (الكانتيسم) هذه النتيجة التي تجعل الواجب شيئا مجرداً والفضيلة حلما .

والآن فلنتل بعض مقطوعاته نرى فيها هذا الشك بارزاً بألوان مختلفة يفيض على جنباتها ، ونرى الجمال الفني أسمى صفاتها . أما المثل الأعلى فأنت تجهد نفسك باطلا لتقف عليه . لأنه هو حلم . يقول :

(لقد خمدت تلك الشمس التي كانت تضيء أيام قوتي . وذهبت رسوم ذلك العالم الكامل الذي كان يهجس به ضميري . وضاع ايماني الجميل بتلك الاشياء التي كانت تخلقها لي أحلامي الوادعة الاهية .)

كان الشاعر يسأل . ماهو الوجود ؟ وأين يذهب ؟ وماذا يحول ؟ والانسان نفسه ما هو ؟

هو في بعض أحيانه :

(كحاج في ربيع أيامه ، وقف في الطريق يستخفه الطرب فسمع صوتا يهتف به : سر وثابر على سيرك حتى تبلغ الأفق ، حيث يغدو ما هو أرضي ترابي سماوياً لا نهائيا .

هذه كانت أنشودة الفجر :

ولكن - واأسفاه - قدم المساء وحالت الجبال والأنهار دون سيره ، فترامى على البحر لكي يبلغ غايته ! ولكن الغاية كانت تفر دائما دون أن يدركها .

وقف الحاج في النهاية قائلا : واأسفاه ! لا طريق تقود الى الغاية ، والسماء لن تلتقي مع الأرض . والمكان الذي أنا فيه ليس هو بالمكان الذي يجب أن أكون فيه .)

وهو في بعض أحيانه الأخرى (كالهارب) الذي يسأل عن نفسه .

(أين يجب علي أن أمشي حتى أجد الهدوء ؟ أنا متكىء على عصاي ! والأرض الضاحكة بربيع شبابها ماهي - لي - إلا كالضريح .

فاصعد يالون الصباح ! ولون بالشفق والقبل الملتهبة هذه الاحراج والغابات . وانزل أيها المساء ، وسكن بهمسك الجميل هذا العالم الذي سكنت منه الحياة

أنت أيها الفجر لا تثير الاحقلا للأموات ، وأنت أيها المساء لا تهز بهمسك الجميل الا نعاسا طويلا .)

ولكن أية أحلام يربدها الشاعر في قصيدته (الهة اليونان) في هذه المقطوعة يظير الهدف الذي سعى اليه ، ووضعه نصب عينيه . فهو يتغنى بالشك ويتباهى به ، لأنه يقدس من اليونان الاقدمين مايريد ان ينشره من عبادتهم الوثنية فهو يعظم حتفهم البسيط ، ويكرم أساطيرهم الحساسة . بل هو يأسف على ذهاب العصر الذي كانت تحكم فيه مجموعة آلهة لطيفة تسيطر على العالم . وتقود الناس وراءها الى آلهات اللذائذ والمسرات ويختم هذه القصيدة بقوله :

(سرعان ماتبدل كل شيء ! في كل الخليقة يجري سلطان الحياة المطلق

(البقية على صفحة ٢٣٨)